جهود المستشرقين في صناعة المعاجم العربية

د. جميـــلة روقـــاب
جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف

الملخص:

تروم هذه الورقة البحثية كشف قدرة العلماء اللغويين المستشرقين على استيعاب التراث العربي الأصيل، من خلال التطرق لجهود الألماني **أوجست فيشر** في مجال الصناعة المعجمية وأسسها المتعارف عليها باتخاذه فكرة وضع معجم عربي تاريخي أنموذجا للدراسة والتحليل، وذلك بالوقوف على بعض المفاهيم اللغوية على غرار الصناعة المعجمية بعامة وأسسها لدى المستشرقين بخاصة عند فيشر، ونظريته في صناعة المعجم وجمع مادته، ومصادره المختلفة، وآليات وضعه من خلال بيان نوع مداخله، وطريقة ترتيبه، وأنماط تعريفه، وأهمّ نقائصه.

الكلمات المفتاحية: المعجم التاريخي؛ فيشر؛ الصناعة المعجمية؛ الترتيب؛ التعريف؛ المداخل.

Abstract :

This paper aims to reveal the ability of orientalis linguists to deal with Arab heritage, by evaluating the German August Fischer's efforts in lexicology and lexicography, being the owner of the idea of making an Arabic historical dictionary, through the identification of some Linguistic concepts like lexicology in General and with Fisher in specific, in addition to his theory of lexicography and collecting different words, their origins, and the way he wrote his dictionary . we will also study the way he arranged the words, their definition and the main shortcomings.

Keywords: historical dictionary, Fisher, lexicology, order, definition, words.

مقدمة:

لعلّ ريادة الاستشراق قد أرهصت لميلاد حركات وجهود علميّة وأدبية منوعة، كشفت قدرة هؤلاء على فهم التراث العربي؛ ففي دراسة مناهجهم في التحقيق تبيّن لنا قدرتهم على فهم المخطوطات العربية، وفي دراسة الفهرسة اللغوية لديهم تتجلّى طرقهم في ترتيب الألفاظ العربيّة، ومعرفة أصولها والحروف الزوائد فيها، وفي دراساتهم للمعاجم العربية وصناعتها تظهر استفادتهم من مناهج البحث الحديثة في دراسة المعاجم، أو صناعتها.

فما المقصود بالصناعة المعجميّة؟ وفيم تتمثّل جهود المستشرقين ودورهم في صناعة المعجم العربي بعامّة والمعجم التاريخي بخاصّة؟ ولكي نعرف أسس الصناعة المعجميّة لدى المستشرقين لا بُدّ من دراسة عدد من أعمالهم المعجميّة التي تمثّل اتّجاهاً واضحاً لدى المؤلّف، سواء من خلال ما ذكروه في مقدّمات كتبهم عن أسس الصناعة، أومن النظر في مؤلفاتهم ودراستها لمعرفة تلك الأسس وتطبيقها في مؤلّفاتهم.

ويحسن أنْ نعود إليهم لنعرف ما ذكروه عن المعجم المثالي في أنظارهم، وبعد ذكر آرائهم نستخلص أسس الصناعة المعجميّة لديهم، وهنا سنقصر الحديث عن أشهر المعجميين المستشرقين حتّى نتخذه أنموذجا للدراسة والتحليل، إنّه

المستشرق الألماني **أوجست فيشر**(**1865-1949**.August Fischer)[1]. تروم هذه الورقة البحثية كشف قدرة العلماء اللغويين المستشرقين على استيعاب التراث العربي الأصيل، من خلال التطرق لجهود الألماني **أوجست فيشر** في مجال الصناعة المعجمية وأسسها المتعارف عليها باتخاذه فكرة وضع معجم عربي تاريخي أنموذجا للدراسة والتحليل، وذلك بالوقوف على بعض المفاهيم اللغوية على غرار الصناعة المعجمية بعامة وأسسها لدى المستشرقين بخاصة عند فيشر، ونظريته في صناعة المعجم وجمع مادته، ومصادره المختلفة، وآليات وضعه من خلال بيان نوع مداخله، وطريقة ترتيبه، وأنماط تعريفه، وأهمّ نقائصه.

[1] مستشرق ألماني اعتنى بدراسات اللغة العربيّة ، ونهج منهج أستاذه هاينرش ليبرشت فلايشر مؤسس مدرسة ليبزج في الاستشراق الألماني ، وهومنهج يقوم على الاستناد الوثيق إلى الشواهد اللغويّة العربيّة ، وإلى أعمال اللغويّين والنحاة العرب ، والابتعاد عن الافتراض من غير أساس، برع في علوم اللغة تأليفاً وتدريساً ، وتولى التعليم في معهد اللغات الشرقيّة (1896-1900) ، وشغل كرسي اللغات الشرقيّة في جامعة ليبزج (1900-1939حيث .تَتلْمَذ عليه أعداد كبيرة من الدارسين من أنحاء كثيرة ، من أشهرهم المستشرقون: شاده وبرجستراسر وجراف .وعُيّن عضواً في مجمع اللغة العربيّة في مصر بعد إنشائه واستمرّ يتردّد على القاهرة في شتاء كلّ عام حتى عام 1939م بعد قيام الحرب العالميّة الثانية ، حيث لم يستطع الرجوع واستمرت عضويته في المجمع إلى سنة 1945م ، وتوفي سنة 1949م.من أعظم أعماله العلميّة مشروع معجمه التاريخيّ للغة العربيّة ، والذي قضى في جمع مادّته أربعين سنة ، وهو موضوع هذه الدراسة.(للتوسع أكثر ينظر: المعجم التاريخي لدى المستشرق الألماني أوجست فيشر، دراسة تقويمية، عبد العزيز بن حميد بن محمد الحميد، ضمن أشغال ندوة المعجم التاريخي للغة العربية- قضاياه النظرية والمنهجية والتطبيقية، فاس، المغرب، 23-25 ربيع الثاني 1431هـ/ 8-10 أبريل 2010.

1- الصناعة المعجميّة:

إنّه فنّ يدرس المعجم من عدّة نواحي وهي:

- طرائق ترتيب مواده.
- اختيار مداخله.
- إعداد التعاريف والشروح لكلماته وألفاظه.
- وضع الصور والرسوم والنماذج المصاحبة لهذه الشروح.

"إنّ صناعة المعجم تؤول إلى منظومة من المواد اللغويّة؛ وتنقسم إلى جانبين:

- جانب نظري: وفيه يتمّ اختيار النظريّة المعجميّة والمنهجيّة العلميّة، والأهداف من وضع المعجم.

- جانب عملي: وضع الخطوات التطبيقيّة التي تتبع في إنجاز المعجم المراد إنجازه"[1] ، ويتطلّب الجانبان تقنيات في جمع المادّة وفي تحليلها وتقنيات تنظميها باعتباره عملا معجميّا قائما على أسس كثيرة.

2- الصناعة المعجميّة لدى المستشرقين:

كان للمستشرقين منذ بداية اهتمامهم بالمعجمية العربية تصوّرات واضحة للتأليف المعجمي العربي[1] نشاطٌ واضحٌ في ميدان صناعة المعاجم، بخاصة

[1] ينظر: في الأمن اللغوي، صالح بلعيد، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2010م، ص: 192.

صناعة المعجم العربيّ، فصدرت أعدادٌ منه مع اختلافٍ بينها في مناهجها وأغراضها وأسسها، ولم تكن كلّها في مستوى واحد من الجودة والإتقان، فمنها ما فقدَ قيمته، فلم يلقَ قبولاً عند متلقّيه، ومنها ما بقي زمناً طويلاً أساساً من أسس المعاجم لديهم، ومنها ما أصبح نادرَ الوجود، وسأذكر عدداً منها وهي :

- ✓ المعجم العربيّ بالحرف القشتالي – الأسباني **بدرو دي ألكالا** Pedro de Alcala:
- ✓ معجم اللغة العربيّة – الإيطالي **أنطونيوس جيجايوس** Antonius Giggeius:
- ✓ المعجم العربيّ اللاتيني – الهولندي **يعقوب جوليوس** 1596–1667)م
- ✓ المعجم العربيّ اللاتيني – ج**ورج فلهلم فريتاج** (1788–1861م G. Freytag).

ولكي نعرف أسس الصناعة المعجميّة لدى المستشرقين لا بُدّ من دراسة عدد من أعمالهم المعجميّة التي تمثّل اتّجاهاً واضحاً لدى المؤلّف، سواء من خلال ما ذكروه في مقدّمات كتبهم عن أسس الصناعة، أومن النظر في كتبهم ودراستها لمعرفة تلك الأسس وتطبيقها في مؤلّفاتهم.

---

[1] ينظر: منزلة مستدرك دوزي من المعجميّة العربية، إبراهيم بن مراد، في المعجميّة العربية المعاصرة، وقائع ندوة مئويّة الشدياق، البستاني، دوزي، جمعيّة المعجميّة العربية بتونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:1407،1هـ–1987م، ص: 271.

ويحسن أنْ نعود إليهم لنعرف ما ذكروه عن المعجم المثالي في أنظارهم، وبعد ذكر آرائهم نستخلص أسس الصناعة المعجميّة لديهم، وهنا سنقصر الحديث عن أشهر المعاجميين المستشرقين حتّى نتخذه أنموذجا للدراسة والتحليل:

3- أسس الصناعة المعجمية لدى فيشر:

يعتبر **أوجست فيشر** – بحقّ – من أبرز المستشرقين في ميدان صناعة المعجم، وأقواهم أثراً فيه، وكانت جهوده المعجميّة معتمدة على أسسٍ واضحة لديه، تنطلق من اتّجاهٍ يؤمن به في ميدان المعجم.ولكي ندرك اتّجاهه في هذا الميدان يحسن أنْ نعرف نظريّته التي دعا إليها، ثمّ نتعرف تطبيقَه لها في معجمه.

4- نظريّته في صناعة المعجم :

لفيشر نظريّة في تأليف المعجم بيّنها حينما قدّم تقريره الخاصّ بطريقة تأليف المعجم التاريخيّ الكبير للغة العربيّة، قدّمه إلى مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، ذلك التقرير يبيّن المعجم المثاليّ في نظره، أمّا صنع المعجم فكان شيئاً آخر، فهو يحتاج إلى من يطبّق تلك النظريّة، ولذا فحينما بدأ فيشر بصنع المعجم التاريخيّ لم يلتزم بكلّ ما ذكره في خطّة المعجم التاريخيّ الكبير، لأنّ ذلك التقرير أعدّه لمجمع اللغة العربيّة، أمّا معجمه الخاصّ فلم يلزم نفسه بكلّ ما ذكره هناك، لأنّه لا يستطيع القيام به وحده.

وممّا فعله **فيشر** لكي يكون صنع المعجم ملائماً له أنْ جعل له حدّاً زمنيّاً يمتدّ من عصر الجاهليّة إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وهو زمن العربيّة الفصحى في أوجّ كمالها.

أمّا ما ذكره في تقريره الخاصّ فلم يحدّد المعجم بفترة زمنيّة، بل ذهب إلى أنّه يشتمل على كلّ كلمة ورد ذكرها في الكتب العربيّة القيّمة دون وضع حدٍّ زمنيّ لنهايته.

حيث أوضح أساس نظريّته في مستهلّ تقريره بقوله: " لا ينشأ المعجم على أساس بقيّة المعاجم العربيّة التي نشرت قديماً وحديثاً، ولا يقتدي بأسلوبها، بل يمتاز عنها بأشياء مهمة تُعرف ممّا هو آتٍ "[1]، ثمّ ذكر الأسس لذلك المعجم، وسأعرضها بعد إعادة ترتيبها على النحو التالي:

أ- مادّة المعجم:

تحوي مادّة المعجم جميع الألفاظ وصيغ الألفاظ والتراكيب والمعاني المختلفة للألفاظ الواردة في الكتب العربيّة التي لها أهميَّتها بين المؤلّفات العربيّة القيّمة، ويتّضح مستوى مادّة المعجم من الاطّلاع على مصادره التي اقترحها وقدّم نماذج لها في خطّته.

[1] تقرير خاصّ بطريقة تأليف المعجم التاريخي الكبير للغة العربية، أوجست فيشر، ملحق في مجلة المقتطف، الجزء الثالث، المجلد (114)، ص 3-36. (وكان المجمع قد أصدر قراراً بأن يقوم فيشر بعمل نموذج لجوازات المعجم، وأن يضع تقريراً يشرح فيه طريقة العمل) ينظر: محاضر الجلسات – دور الانعقاد الثاني – الجلسة3، ص: 29

وأشار في مقدمة معجمه إلى نظريّته في المعجم الذي تحتاجه العربية، وتساءل عن كيفية كون معجم العربية ملائماً للتطوّر العلمي للعصر الحاضر، وأجاب عنه بوجوب اشتمال المعجم على كل كلمة – بلا استثناء – وجدت في اللغة، ولكنه حينما بدأ بإصدار معجمه جعل له حدّاً زمنياً ينتهي بنهاية القرن الثالث الهجري.

والأصل عند فيشر أن تكون مصادرُ المعجم المصادرَ الأصلية الأولى للعرب لا المعاجم، لكنه رأى الرجوع إلى المعاجم عند عدم وجود مصدر لأحد الألفاظ، وصرّح فيشر بعدم الرجوع إلى المعاجم في إحدى مداولات المجمع حول مصادر المعجم[1].

ب- مصادر فيشر:

أورد **فيشر** في الجزء المطبوع من معجمه قائمة بالمصادر التي أخذ منها شواهده وتعليقاته، وسردها على الترتيب الألفبائيّ بذكر المختصر الذي يشير إلى المصدر في ثنايا المعجم، وأمامه اسمه كاملاً، وأحصيتها فبلغت مائتين واثنين وتسعين مصدرا[2]، ومع كثرتها إلاّ أنّها لا تعدّ شاملة لعصور العربيّة أو مواضيعها أو ميادينها، حيث ذكر أنّه سيقف عند نهاية القرن الثالث الهجري، وهو تحديد لا يعني أنّه يرى عدم تدوين ما جاء بعد ذلك الزمن، بل إنه نبّه إلى أنّ كلّ كلمة استُعملت في اللغة لها حقّ التدوين، ولعله أراد بذلك التحديد أن يكون التجربة

[1] ينظر : المرجع السابق، ص: 136.

[2] معجم المستشرق أوجست فيشر وصفه ونقده، توفيق أحمدي الطيب، مجلة المجمع العلمي العربيّ، العراق، ج 4، مجلد،24 ص:501- 504.

الأولى في صناعة معجم تاريخيّ، يبدأ بما قبل الإسلام مع القرون الثلاثة، ثمّ تليها جهود أخرى تستكمل ما نقص منها.

وممّا يُلاحظ على قائمة مصادره أنّها " اختيرت في جُلّها وعن قصد من المصادر المجموعة التي حقّقها ونشرها المستشرقون دون غيرهم، ولقد اختلطت فيها النصوص المدوّنات بالمراجع الثانويّة، لأنّ المؤلّف لم يفصل بين النصوص الأصول والمراجع الثانويّة التي يستعين بها للاستدراك على بعض السقطات أو الفراغات في النصوص الأصليّة، فلقد حشر النوعين من النصوص في زمرة واحدة، كأنّها متساوية في القيمة من حيث صلتها بالمعجم التاريخيّ[1].

ويتّجلّى من استعراض المصادر أنّ **فيشر** رجع إلى مصادر من تلك التي اعتمدها علماء العربيّة، إلى جانب كتب أخرى من عصور مختلفة بما فيها العصر الحديث، وسبب غلبة المراجع القديمة المشتملة على الفصيح دون غيره، ليس لكونه يؤمن بحدود الفصاحة التي ضربها العلماء، وإنما لكونه ذكر أنّه سيقف في تتبع التطوّر التاريخيّ للمعاني عند نهاية القرن الثالث الهجري.

فلم يلتزم **فيشر** في مصادره بأنْ تكون كلّها من كتب الأصول التي تحتوي على الألفاظ، حيث كان هدفه ذلك، إلاّ أنّه نبّه في مقدّمته إلى أنّ من الكلمات ما لم يجد لها شواهد في المصادر الأصليّة، ولذا رجع إلى بعض المعاجم العربيّة القديمة، ورجع أيضاً إلى كتبٍ حديثةٍ لمستشرقين، والتعليل لرجوعه إلى كتب

[1] مقدمة فيشر لمعجمه (المعجم اللغويّ التاريخيّ)، أوجست فيشر، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط1، 1983، ص: 7.

المستشرقين – كمعجم **دوزي** – هوإن أغلبها مختص بالعربيّة الفصحى، فالمهمّ عنده أنْ تكون الألفاظ داخلةً في تحديده الزمني، أمّا الكتب فلا ضير أنْ تكون من عصور متأخرة، لكن معجم **دوزي** مثلاً لم يكتف بالفصحى دون غيرها، بل جمع من شتى أصناف الألفاظ، وقد يكون **فيشر** أخذ منه ما علم أنّه من الفصحى دون غيره من مستويات الألفاظ.

وممّا سلف ذكره، ندرك أنّ **فيشر** لم يبعد عمّا ذهب إليه **دوزي** من أنّ المعاجم يجب أنْ تشتمل على جميع الكلمات المتداولة بين أهلها دون تفريق بينها، ومع أنّه لا ينكر فائدة اقتصار علماء العربيّة على الفصيح دون غيره في الحفاظ عليها، إلاّ أنّه لحظ أنّ حدود الفصاحة والفصيح غير متّفق عليها عند جميع العلماء، وهو مأخذ قويّ في هذه القضيّة، يتناول اللغة في عصورها الأولى في الإسلام، ولا يتناول ما جدّ في اللغة من الألفاظ في العصر الحديث، لكنّ هذا الخلاف يعطي دلالة على أنّ في الفصاحة قضايا لم يجمعوا عليها، وهي حجة قويّة لمن يتوسّع في حدودها.

وهكذا أراد **فيشر** بالمصادر التي سردها في خطته تقديم نماذج منها للتعريف بمعجمه، ولم يرد بها الحصر، وبعد نهاية حديثه عن نظريّته قدّم نموذجاً للمعجم من مادّة (أخذ)، ثمّ قدّم قائمة بالمصادر التي رجع إليها، فبلغت (131) مصدراً، ولا شكّ أنه لم يرد بها الحصر أيضاً فلو اطّلعنا على قائمة مصادر معجمه التي وضعها في نهاية الجزء المطبوع منه فسنجدها أكثر من هذه، فقد بلغت (292) مصدراً، مع أن معجمه يقف عند نهاية القرن الثالث، أمّا دعوته هنا إلى المعجم

التاريخي فأراد بها معجماً شاملاً للعربية في جميع العصور، فيتّضح أن مصادر المعجم التاريخي الذي دعا إليه ستكون شاملة لكل العصور، وستكون أكثر من مصادر معجمه.

ج- مداخل فيشر:

لقد بنى **فيشر** مداخل معجمه على الكلمات التي أوردها تحتها، حيث فرق بين الكلمات العربيّة والأعجميّة في وضعها في معجمه على النحو التالي:

حيث جعل المدخل الرئيس في الكلمات العربيّة المادّةَ الأصليّة مجردة من الزوائد، ووضع تحتها مشتقاتها، شأنه شأن أغلب المعجميّين الذين يدركون قيمة وضع المشتقات تحت مادّة واحدة في العربيّة.

كما أفرد لكلّ كلمة أعجميّة مدخلاً خاصّاً، حيث أوردها في موضعها على صورتها التي هي عليها، دون أنْ يعيدها إلى أصل عربيّ، إلاّ إذا تصرّف بها العرب، قال في مقدّمته :" والكلمات الأعجميّة المعرّبة الزائدة على ثلاثة أحرف تتبع الكلمات العربيّة في ترتيب المعجم إنْ تصرّف فيها العرب بالاشتقاق، مثل: إبريق، دكان، ديباج، أسوار، سراويل، وهلمّ جرّاً (تجدها في مادّة " برق "، "دكن"، " دبج "، " سور "، " سرول " وهلمّ جرّاً.

أمّا ما لم يتصرّف فيه العرب بالاشتقاق فتعتبر حروفه كلّها أصليّة، مثل إبر يسم، إستبرق، بنفسج، سفرجل، شطرنج، وهلمّ جرّاً، غير أنّي أوردت أيضاً " إبريق، دكان، ديباج، أسوار، سراويل "، وهلمّ جرّاً على حدة، مشيراً إلى مادّة "

برق"، " دكن "، " دبج"، " سور"، "سروال" وهلمّ جرّاً، لكي يتيسر العثور على جميع الكلمات الأعجميّة المعرّبة دون عناء[1] .

ومن أمثلة الكلمات الأعجميّة:

أورد بعد (آح): (آذين) وهي فارسيّة، ثم (آزادمرد، آزادمرد (·وهي فارسيّة، ثم (آسمانجونيّ، أسمانجونيّ) وهي فارسيّة، وكلّ تلك الكلمات في مداخل مستقلّة

د- طريقة الترتيب:

يتمثّل ترتيبه فيما يلي:

1- المداخل تُرتّب على الحرف الأوّل فالثاني وهكذا.

2- المشتقات تُرتّب بالنظر إلى نوعها:

تأتي جميع أبنية الأفعال أوّلاً، وذكر خمسة عشر بناءً على الترتيب التالي : فَعَل، فَعِل، فَعُل، فَعّل، فاعَل، أفْعَلَ، تَفَعّلَ، تَفاعَل، انْفَعَل، افْتَعَل، افْعَلّ، استفعل، افْعالّ، افْعَوْعَل، افْعَوّلَ، افْعَنْلَلَ، افْعَنْلى، وهو عدّ الثلاثة الأولى بناءً واحداً للماضي الثلاثي.

[1] ينظر: المعرّب والدخيل في المعجم اللغويّ التاريخي، حلمي خليل، مجلة المعجميّة، وقائع ندوة المعجم العربيّ التاريخي – قضاياه ووسائل إنجازه، 5-6، ص:307

ثم جميع أبنية الأسماء، وسردها فبلغت تسعين بناءً، وأشار بعدها إلى أنّه يقاس عليها بقيّة أبنية الأسماء لأنّها كثيرة، وذكر أنّ ترتيبها على ترتيب الأفعال: المجرد ثمّ المزيد...

وممّا ذكره من أبنية الأسماء ما يلي: فَعْل، فِعْل، فُعْل، فَعَل، فَعِل، فِعَل، فِعِل، فُعُل، فُعَل، فَعُل، فاعِل، فاعَل، فعَال.

ونبّه إلى أنّ مضارع الثلاثي يذكر عند ذكر ماضيه بعلامات خاصّة تميّزه، وذكر ضرورة إيراد مصادر الثلاثي بعد أبنيته، وتُذكر جميع الأسماء المفردة معها.

وفضّل ذكر الأبنية المقيسة المطّردة كاسم المرّة، ومصادر ما فوق الثلاثي واسم التفضيل وأفعال التعجب وجمع السلم بقسميه.

هـ- أنماط التعريف:

ذكر عدّة قضايا تتعلق به أعرضها على النحو التالي:

1- ضبط جميع كلمات المعجم بدقّة، إمّا بذكر مثالٍ مشهور، أو بالنصّ على حركات حروفها.

2- الاستشهاد للكلمات والتراكيب والمعاني المختلفة، ويذكر مع الشاهد المصدر الذي أُخذ منه، مع ذكر المؤلّف أو الشاعر، ورقم الصفحة والسطر أو القصيدة والبيت.

ويُكتفى مع الكلمات كثيرة الدوران بالمهمّ من الشواهد الدالّ على خواصّها وزمن استعمالها، ودائرته، مع ذكر علامة خاصّة تشير إلى كثرة ورودها.

أمّا الكلمات قليلة الوجود فتذكر كلّ المواضع التي وردت فيها.

3- التفرقة بين شواهد النثر والشعر بوضع نجمة أو علامة أخرى مع الشعر.

4- ترتيب الشواهد تاريخيّاً بحسب تواريخ مصادرها، لمعرفة حياة الكلمات وتاريخها

5- وضع علامة خاصّة بالمعرّب والدخيل، مع ذكر أصله بدقّة.

6-التعريف بالحيوان والنبات بدقّة، لتمييز كلّ واحد منها عن غيره، مع ذكر اسمه العلميّ.

7- تفسير الاصطلاحات الحديثة بأسمائها العلميّة.

أمّا تطبيق فيشر لنظريّته التي ذكرها في تقريره، فعند الاطّلاع على النموذج الذي أرفقه بالتقرير – وهو جزء من مادّة (أخذ) – يتبيّن لنا ضرورة دراسته ليتّضح تطبيقه لنظريّته أو إخلاله بها.

هذا النموذج يدلّ على الجهد الذي بذله في ملاحقة النصوص التي تشتمل على المادّة اللغويّة، وهي مادّة (أخذ)، بل الثلث الأوّل منها – على ما ذكره في خطّته – حيث جمع نصوصها وشواهدها، وكدّ ذهنه في الوصول إلى معانيها المتعدّدة، لا اعتماداً على المعاجم اللغويّة القديمة، وإنما استنباطاً من الشواهد التي جمعها، ولذا أوصل معاني (أخذ) إلى اثنين وثلاثين معنىً، جعل كلاًّ منها قائماً مستقلاً، لأنّها معانٍ متعدّدة في رأيه.

تميّزت تلك المعاني بالثراء في شواهدها، حيث جمعها من مصادر كثيرة جدّاً، أمّا تعدّد تلك المعاني فلم يألفه العربيّ في المعاجم القديمة، ففي أغلبها يجد فيها واحداً للمعنى الحقيقي، وآخر للمجازي.

ويرجع تعديد فيشر هذه المعاني إلى نظرته – وهو الأعجمي – إلى الدلالات اللغويّة المجازيّة على أنّها معانٍ مستقلّة، لعدم إدراك الصلة المعنويّة بين المجازي والحقيقي، مع أنّ كثيراً منها يدخل تحت المعنى الأصلي، لكنه اكتسب دلالة مجازيّة من سياقه لا تخرجه عن الدلالة الأصليّة.

5- بعض نقائص فيشر في وضع المعاجم:

قبل بيان المعاني التي عدّدها فيشر وكان الصحيح جعلها تحت معنى واحد، يحسن سرد المعاني التي ذكرها دون أنْ أذكر شواهدها لكي لا يطول السرد، مع ذكر عدد شواهد كلّ معنى أمامه؛ إذ عدّد المعاني بحسب ما يقع عليه الأخذ، مع أنّ المعنى واحد لكنه مختلف باختلاف المأخوذ، ولو أخذنا بعض الأمثلة من معانيه لأيقّنّا أنّ عدم إدراكه رجوعَ كثيرٍ منها إلى معنى واحد هو بسبب جهله بالصلة المعنويّة بينها، وهوما جعله يفسّر اللفظ في كلّ سياق بالنظر إلى الدلالة المكتسبة من السياق لا إلى الدلالة المكتسبة من اللفظ نفسه.

ولعل من أوضح ما ينتج عن جهل الأعجمي باللغة أنْ يضطرب في التفريق بين المعنى الحقيقي والمجازي للفظ، وهوما وقع فيه **فيشر** في نموذجه الذي قدّمه، فمع أنّه نبّه إلى بعض المعاني المجازيّة، إلاّ أنّه ترك معاني أخرى دون تنبيهٍ على مجازيّتها، ظنّاً منه أنّها حقيقيّة.

واضطراب الفرق بين الحقيقي والمجازي لدى **فيشر** هو الذي أوقعه في هذا، ودعاه إلى تتبّع شواهد الأخذ – على كثرتها – وتصنيفها بحسب المعاني التي تدلّ عليها هذه المادّة، وإنْ كان ما رآه معنى جديداً هو في الحقيقة راجع إلى معنى أصليّ، لوجود صلة بينهما لم يستطع إدراكها.

وهذا المأخذ لَحَظه عبد القادر المغربي حينما قدّم فيشر تقريره إلى المجمع، قال عن ذلك :" والمؤلّف – وإنْ أشار إلى أنّ من المعاني ما هو حقيقي وما هو مجازي – لكنه أبهم التفرقة بين المعاني الحقيقيّة والمجازيّة إبهاماً يوقع القارئ في حيرة من تفهّم ما يقرأ ... ثمّ قال : ومن تأمّل كلام المؤلّف وجده في تصنيفه لمعاني (أخذ) قد أقام الاختلاف في الفاعل أو المفعول أو المتعلّق سبباً لجعل الفعل الواحد فعلين، واعتبار معناه معنيين") [1] ؛ وإنْ أُخِذ على **فيشر** خلطه بين الحقيقي والمجازي، فإننا ندرك عذره فيه، فهو يكتب بلغةٍ لا تمتّ إلى لغته بصلة، ولعلمه بصعوبة إدراك المعاني والتفرقة بينها سلك فيها مسلك المعجميّين في لغته، حيث تُذكر المعاني مستقلّة عن بعضها، لكنه نسي الفرق بين اللغتين، فالمعاني تأتي في العربيّة متصلة بالمعنى الأصلي للمادّة، وإنْ ظهر للناظر أنّها معانٍ مستقلّة.

وممّا أنبّه إليه هنا وجوب عدم التكلّف في محاولة ردّ المعاني المتعدّدة إلى معنى واحد يجمعها، وإنْ أغفل أكثر المعجميّين العرب التنبيه إلى الأصول التي

[1] سأذكر في هذا الموضع عدداً قليلاً من مصادره على سبيل التمثيل، وهي المصادر التي وجدت في بطاقاته التي اطّلعت عليها إحدى لجان المجمع، وقدّمَت تقريراً عن المعجم ومصادره.

تعود إليها المعاني، فإنه أُخذ على ابن فارس تكلّفه ذلك في كتابه (معجم مقاييس اللغة).

أمّا ما طُبع من معجم **فيشر** التاريخيّ فبالموازنة بينه وبين ما ذكره في تقريره المقدّم إلى مجمع اللغة العربيّة – والذي سبقت دراسته – يظهر التقارب بينهما، فكلاهما سَعَيا إلى معجم تاريخيّ للغة العربيّة، وبالاطّلاع على مقدّمة معجمه يتّضح لنا ذلك جميع الكلمات المتداوَلة في لغة ما لها حقوق متساوية فيها، وفي أنْ تُعْرَض وتستوضح أَطوارها التاريخيّة في معجماتها، ولكنّ المعجمات العربيّة بعيدةٌ كلَّ البعد عن وجهة النظر هذه، إذ إنها لا تعالج الناحية التاريخيّة لمفردات اللغة، بل تقتصر على إيضاح الاتّجاه النموذجي لها، أعني أنّ مصنفيها إنما أَرادوا التفرقة الدقيقة بين الفصيح من العربيّة وغير الفصيح، وذلك بوضع قانون للاستعمال الصحيح للكلمات، ويدلّ هذا الاتّجاه – دون شكّ – على إحساس لغويّ دقيق عند اللغويّين، ولكنه عاق القوة الحيويّة الدافعة في اللغة عن التقدّم والتوسّع[1]"، كان فيشر أقرب فهماً للغة وعلومها، فاستطاع أنْ يعرف قيمة الفصحى في كونها الأصل في العربيّة، وبأنّها مازالت باقية ببقاء القرآن، إلى جانب مستويات اللغة الأخرى.

ويتّضح من قول فيشر السابق أنّه يرى المعجم المثالي هو المعجم التاريخيّ الذي يتتبع تطوّر دلالات الكلمة عبر العصور، دون أنْ تكون الفصاحة شرطاً لها،

[1] تاريخ المعجم التاريخي العربيّ في نطاق العربية: المبادرات الرائدة، محمّد رشاد الحمزاوي، مجلة المعجميّة، العدد 56، ص:26.

فهو يرى أنّ التفرقة بين الفصيح وغيره إعاقة للغة عن التقدّم، إلاّ أنّه كان يدرك أنّ مراعاة فصاحة الكلمة له منافع في الحفاظ على اللغة أمّا فيشر فيريد تتبّع اللغة في عصورها المختلفة، سواء ما كان منها قديماً، وما كان حديثاً.

6- المعجم التاريخي العربي في نظر فيشر:

دعا **فيشر** في مقدّمة معجمه الخاصّ من خلال عرض الألفاظ عند دراستها على وجهات النظر السبع : التاريخيّة، والاشتقاقيّة، والتصريفيّة والتعبيريّة والنحويّة والبيانيّة والأسلوبية، فلم يدعُ إليه في تقريره الخاصّ بوضع المعجم الكبير لمجمع اللغة العربيّة.

كما كان فيشر أوّل من نادى بحاجة العربيّة إلى معجم تاريخيّ متكامل، مع بيان أسس هذا المعجم، فلم تكن دعوةً عابرة، بل دعوة تحمل معها نظريّة واضحة المعالم، دعا إليها صاحبها وأوضح أسسها، ومبررات تلك الحاجة.

أمّا عن المؤثر الرئيس الذي لَفِت **فيشر** إلى هذا الاتّجاه فهو الاتّجاه الذي ظهر في أوربّا بصنع معاجم تُعنى بالجوانب التاريخيّة للألفاظ، إلى جانب أنّ **فيشر** قد تَلْمذ على كبار المستشرقين الألمان وغيرهم من علماء اللغات الساميّة والدراسات اللغويّة التاريخيّة المقارنة، ولذا كان لديه تصوّر للمعجم التاريخيّ للعربيّة، وهو تصوّر قائم على تلك المبادئ والدراسات[1].

[1] مقدمة فيشر، المصدر السابق، ص:27.

7- خاتمة البحث:

وصفوة القول تجعلنا نشير إلى أهمّ النتائج التي نجملها فيما يلي:

اعتماد المستشرقين على النصوص الأصلية في الكتب العربية المختلفة – للاستشهاد على المعاني – لا على المعاجم العربية، وقد اتّضح لدينا هذا عند دراسة معجم **فيشر**، حيث رجع إلى كتب النصوص ككتب التاريخ والرحلات والأدب وغيره، ولم يرجعا إلى المعاجم العربية إلاّ في مواضع قليلة. كما اعتنى المستشرقون عناية جليّة بصناعة المعجم العربي لإدراكهم بأنه مفتاح اللغة، حيث سعوا إلى تعلّم العربية وتيسير تعلّمها بوضع معاجم ثنائيّة، بالعربية ولغات واضعيها، واستفادوا من النظريات المعجمية في صناعة المعاجم في لغاتهم.

أمّا بخصوص الصناعة المعجمية العربية، فلا بدّ من الاطّلاع على جهود المستشرقين في هذا الحقل اللغوي، نتيجة ما ناله من الاهتمام دراسة وتطبيقا.

وعند المقارنة أو المقاربة بين الدراسات العربية حول صناعة المعجم والدراسات المعجميّة لدى المستشرقين يظهر افتقارنا إلى دراسات متخصّصة تتّجه هذا الاتّجاه، لا لدراسة المعاجم القديمة ومعرفة مدارسها فحسب، وإنّما لمعرفة النظريّات التي اعتمد عليها واضعوها، لمعرفة محاسنها وعيوبها، للاستفادة منها في صناعة المعجم في العصر الحاضر.

المصادر والمراجع:

1- تاريخ المعجم التاريخي العربيّ في نطاق العربية: المبادرات الرائدة، محمّد رشاد الحمزاوي، مجلة المعجميّة، العدد56.

2- في الأمن اللغوي، صالح بلعيد، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2010م، ص: 192.

3- في المعجميّة العربية المعاصرة، وقائع ندوة مئويّة الشدياق، البستاني، دوزي، جمعيّة المعجميّة العربية بتونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:1407،1هـ-1987م.

4- مجلة المجمع العلمي العربيّ، العراق، ج 4، مجلد 24.

5- مجلة المعجميّة، وقائع ندوة المعجم العربيّ التاريخي – قضاياه ووسائل إنجازه، 5-6.

6-مجلة المقتطف، الجزء الثالث، المجلد (114).

7- المعجم التاريخي لدى المستشرق الألماني أوجست فيشر، دراسة تقويمية، عبد العزيز بن حميد بن محمد الحميد، ضمن أشغال ندوة المعجم التاريخي للغة العربية- قضاياه النظرية والمنهجية والتطبيقية، فاس، المغرب، 23-25 ربيع الثاني 1431هـ/ 8-10 أبريل 2010.

8- مقدمة فيشر لمعجمه (المعجم اللغويّ التاريخيّ)، أوجست فيشر، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط1، 1983.